

الفصل الثالث

الطبيعة الإنسانية

فى الفلسفة المثالية المعاصرة وانعكاساتها التربوية

إن طبيعة الإنسان وماهيته وجوهره قد أخذت حيزاً كبيراً من البحث والدراسة لدى الفلاسفة عبر العصور المتباينة ، للكشف عن أسرارها وخبايها . وتعتبر مشكلة الطبيعة الإنسانية من المشكلات الفلسفية الهامة التي شغلت الفكر الإنساني منذ القدم . وهي مركز اهتمام الفيلسوف ، كما أنها الشغل الشاغل للمربي ، فمن الصعب أن نعطي تعريفاً ملائماً للتربية دون أن يكون لدينا تصور للطبيعة الإنسانية . ومن الطبيعي أن يختلف تعريف التربية باختلاف النظر إلى الطبيعة الإنسانية إذ أن التربية فى حقيقتها تنمية وتهذيب الموجود الإنساني من الناحية العقلية والجسمية والروحية والاجتماعية ^(١) .

" والمثاليون بصفة عامة يرون أن الهدف من التربية هو تهذيب وتنمية الشخصية ، وهذا الهدف كان واضحاً فى كتب كانط وجنتيلى وهورن Horne ^(٢) .

^(١) Redden. John and Ryon Francis " A Catholic philosophy of Education" Milwaukee, Bruce, 1942, P.23.

^(٢) Ozman " Philosophical foundations of Education" P. 16.

إن الهدف من التربية عندهم هو إعداد الإنسان فى صورة مثالية وهى تربية تساعد الإنسان أن يفهم نفسه ويدرك طبيعته الروحية ولتحقيق هذا الهدف تركز التربية على قيم الحق والخير والجمال " (١) .

ويجب أن تركز أية فلسفة للتربية على نظرة معينة عن الإنسان ، والعالم والوجود . فالبحث فى الطبيعة الإنسانية هو استمرار للبحث فى الوجود بصفة عامة فالمربى وفيلسوف التربية — بشكل خاص — يجب ألا يكتفى بمعرفة طبيعة الوجود الذى نعيش فيه ونتعلم فيه أيضاً بل يجب أن يعرف أيضاً الصفات الخاصة بذلك الإنسان الذى يتعلم " (٢) .

ويستهدف هذا الفصل تحليل الطبيعة الإنسانية فى الفلسفة المثالية المعاصرة وانعكاساتها التربوية وذلك من خلال المحاور الآتية :

أولاً : الطبيعة الإنسانية بين التغير والثبات .

ثانياً : الأساس الاجتماعى للطبيعة الإنسانية .

ثالثاً : موقف لالاند من ثنائية الطبيعة الإنسانية .

رابعاً : الطبيعة الإنسانية بين الخير والشر .

خامساً : التربية الروحية .

سادساً : خاتمة الفصل .

(١) Loretta "Teaching and Learning" New Delhi, Lippincott, CO, 1965, P.81 .

(٢) Brubacher □ Modern Philosophies of Education□ P.42.

أولاً : الطبيعة الإنسانية بين التغير والثبات :

إن البحث فى الطبيعة الإنسانية يظهر لنا أنها تحتوى على عدد من الخصائص ، كانت محكا للخلاف بين الفلاسفة فترتبط نظرية الفيلسوف إلى الطبيعة الإنسانية بنظرته إلى الوجود والمعرفة والقيم . والمثالية المعاصرة ترى أن الطبيعة فى حالة تغير دائم وصيرورة مستمرة ، وهذا ما عبر عنه برجسون ولالاند وكروتش وبرنشفك . ومعنى التربية أساساً قائم على افتراض أن الوجود الإنسانى فى حالة من التطور والتغير المستمر . إن الإنسان يمر بسلسلة من التغيرات . والتربية ما هى إلا إحداث هذا التغير وإذا كانت الطبيعة الإنسانية فى تغير ، فالمثالى المعاصر يرى أن الوجود يتغير أيضاً " ويترتب على ذلك أن أهداف التربية يجب أن تتبدل من مكان إلى مكان ومن زمان إلى آخر " (١) .

ويصور كروتش الذات الإنسانية وهى فى حالة من التطور والتقدم ، فيقول " إننا نستطيع أن نرى فى أنفسنا فى تقدمنا العلقى اليومى كيف أن أفكاراً أوسع تحوى وتفوق أفكار السنة السابقة ، بل اليوم السابق بل الدقيقة السابقة " (٢) . ومن هنا يؤكد كروتش على التربية العقلية المستمرة التى يكتسبها الإنسان فى كل لحظة من حياته وإن التربية لا تتوقف عند لحظة ما من حياة الإنسان بل تستمر معه طوال حياته ، فإذا كانت الحياة تتغير وتتبدل كما يصورها كروتش فعلى الإنسان أن يتكيف مع هذه الحياة المتغيرة ، فالخبرة الإنسانية تتسع بشكل تقدمى متزايد ،

(١) Ibid , P.76.

(٢) كروتش "المجمل فى فلسفة الفن" ترجمة سامى الدروبى، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٧٤ ، ص ١٣٩ .

ومعرفتنا فى حالة نمو مستمرة ، والعقل فى ارتفاع دائم حتى يصل إلى مستويات أعلى فأعلى وهو دائماً ينشد تجسيد المطلق .

ولقد عبر برجسون عن هذا المعنى بقوله : " والحق أننا نتغير دون انقطاع ، وأن الحالة نفسها ليست إلا تغيراً " (١) .

ويتحدث برجسون عن الوجود الإنسانى فيقول : " ليس ثمة ريب فى أن وجودنا هو الوجود الذى نراه أكيداً إلى أكبر حد ، والذى نعرفه على أكمل وجه ، وذلك لأنه من الممكن أن نحكم على معانى الأشياء الأخرى التى نكونها لأنفسنا بأنها معان خارجية وسطحية ، فى حين أننا ندرك أنفسنا ادراكاً داخلياً وعميقاً ، فالإحساسات والعواطف والارادات والتصورات هى التغيرات التى تتقاسم وجودى ، والتى تلونه كل منها بلون خاص واحدة بعد الأخرى .

فأنا إذن فى تغير مستمر ... نعم إننى أتغير ... فإن مجهوداً ضئيلاً من الانتباه أبذله ربما كشف لى أنه ما من وجدان ، وما من تصور ، وما من إرادة إلا وتتغير فى كل لحظة ، ولو أن حالة نفسية ما توقفت عن التغير لتوقف زمنها عن الجريان " (٢) .

وهكذا نجد أن الذات الإنسانية عنده فى حالة تغير دائم ، وانتقال مستمر لا ينقطع ولا يتوقف ، ومع ذلك فهو تغير متصل ، وهذا ما عبر عنه برجسون : " وأخيراً كل ما يكون شعورنا الذاتى فى لحظة معينة ، فهذه المنطقة بأسرها هى التى تكون حالتنا فى حقيقة الأمر ، وإذن يمكن القول

(١) برجسون "التطور الخالق" ترجمة محمد محمود قاسم ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٤ ، ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢ .

بأن هذه الحالات التى عرفناها على هذا النحو ليست عناصر منفصلة بل يتصل بعضها ببعض فى تيار يسيل إلى مالا نهاية له ... ولو كان وجودنا مكونا من حالات منفصلة يظن أن " ذاتاً " محايدة لدينا تقوم بالتآلف بينها لما كان للديمومة وجود بالنسبة إلينا ، وذلك لأن الذات التى لا تتغير لا تستمر فى الديمومة " (١) .

وأيضاً يصور برنشفك الذات الإنسانية على أنها تغير دائم ، وتطور مستمر فالعقل ينبوع الحقيقة " والحقيقة ليست أبداً بالنسبة إلى العقل أمراً ثابتاً إنها حياة ...، وهكذا فإنه فى الوقت الذى يولد فيه الحق وينمو فإن العقل ينمو ويتطور ويتقوى لأن العقل ليس شيئاً مكتملاً ثابتاً لا يتغير " (٢) .

إن الذات فى تقدم ونمو دائم من خلال ما تكتسبه من معارف علمية ورياضية ولذلك كان الاهتمام الأكبر لبرنشفك العناية بدراسة التقدم المستمر الذى حققته البشرية ، كما حرص على دراسة الإنسان من خلال تكوين ذاته عبر التاريخ ، وكذلك ذهب لالاند إلى أن الطبيعة الإنسانية فى تغير دائم بل ذهب إلى أكثر من ذلك فهو يرى أن التغير ليس من صفات الإنسان فقط بل أيضاً من صفات المجتمع الذى يتجه نحو الوحدة والتشابه فى التقدم مستمر ويتجه نحو الوحدة وإزالة الفوارق والطبقات داخل المجتمع ، وبذلك ربط لالاند بين تغير الطبيعة الإنسانية والطبقات الاجتماعية . وقد ذهب برجسون إلى أن خلق الإنسان لنفسه بنفسه يكون أكثر تماماً كلما أجاد التفكير فيما يفعل " (٣) .

(١) المرجع السابق ، ص ١٣، ١٤ .

(٢) بنروبى "مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة فى فرنسا" القاهرة ، دار النهضة المصرية ، ١٩٦٧ ، ص ٤٤٠ .

(٣) برجسون - التطور الحاضر ، ص ١٧ .

فإنسان ينمو ويتغير من خلال الخبرات التي يتعلمها ويكتسبها من الحياة فليس هو آلة ميكانيكية كما صوره الماديون لا حول لها ولا قوة بل مركز قوة منبهة ، وقوة خالقة متطورة حرة تعرف ما تفعل ومسئولة عن أفعالها " ويخطيء إذن من يحسب الإنسان آلة صماء في يد القوانين المادية ، إنما هو كائن مدرك ، حر الإرادة ، قادر على اختيار سلوك معين ، والاختيار خلق وإنشاء " (١) .

وفى ذلك يقول برجسون :

" ونحن نجد أن الوجود بالنسبة إلينا كائن شعورى ينحصر فى التغير وأن التغير ينحصر فى التضج والتضج ينحصر فى أن يخلق المرء نفسه بنفسه على نحو غير محدود " (٢) .

ويقول أيضاً " إننا نخلق أنفسنا خلقاً مستمراً ، هذا إلى أن خلق الإنسان لنفسه بنفسه يكون أكثر تماماً كلما أجاد التفكير فيما يفعل " (٣) .

ويشير برجسون هنا إلى أن الذات فى تغير دائم ، وفى حالة من الخلق المستمر من خلال ما تكتسبه الذات من خبرات متباينة قد تكون خبرات مقصودة أو غير مقصودة .

والإنسان مدنى بطبعه ، يعيش فى بيئته مع الآخرين ، وهو يتعرض لخبرات عديدة ، فهو يحنك بالبيئة ، ويكتسب منها الخبرات ، ويتفاعل معها . وهنا يتعلم ويكتسب معلومات ومهارات ، بل إنه ينمى قدراته

(١) تكي نجيب محمود وأحمد أمين " قصة الفلسفة " ، مرجع سابق - ص ٣٧٠ .

(٢) برجسون " التطور الخلق " مرجع سابق ص ١٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٧ .

وإمكانياته واستعداداته حتى يستطيع أن يتوافق مع بيئته . والإنسان أكثر الحيوانات مرونة وقابلية للتعلم ، وكذلك للتعليم ، ولم تعد الذات الإنسانية تقف عند حد معين من العمر من اكتساب للخبرات ، بل تستمر فى اكتساب الخبرات ، لأنها فى تغير دائم واكتساب خبرات جديدة ، فهى فى حالة بناء مستمر .

وقد أشار برجسون إلى ذلك بقوله : " إن شخصيتنا التى يستمر بناؤها فى كل لحظة عن طريق تكديس التجارب لا تكف عن التغير ... وهكذا تنمو شخصيتنا وتكبر وتتضج دون انقطاع ، وفى كل لحظة من لحظاتها عنصر جديد ينضم إلى ما كان موجودا منها من قبل ... وهذا هو الحال بالنسبة إلى لحظات حياتنا التى نصنعها نحن بأنفسنا ، فكل لحظة منها نوع من الابتكار " (١) .

ويرى برجسون وكروتش وبرنشك ولا لاند أن تربية الذات الإنسانية وتنمية قدراتها تستمر فى كل لحظة وتتم هذه التربية من خلال التجارب والخبرات التى يتعرض لها الإنسان فى حياته ، فالإنسان فى نمو دائم لا ينقطع وفى كل لحظة من لحظات حياته يكتسب خبرات جديدة وتتراكم هذه الخبرات والتجارب داخل الذات الإنسانية وتشكل طبيعتها وتؤثر فى سلوكها سواء كان ذلك شعورياً أو لا شعورياً ، وقد أشار كروتش إلى هذا حينما قال " إننا نستطيع أن نرى فى أنفسنا وفى تقدمنا العقلى كيف أن أفكاراً أوسع تحوى وتفوق أفكار السنة السابقة بل اليوم السابق بل الدقيقة السابقة " (٢) .

(١) المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٢) كروتش " المجل فى فلسفة الفن " مرجع سابق ، ص ١٧٩ .

ويشير برجسون إلى أهمية الذاكرة ، فهي التي تحفظ الخبرات التي اكتسبها الإنسان من طيات النسيان هذه الخبرات التي تشكل شخصية الإنسان . وإذا كانت الذات في تطور دائم وبناء مستمر ، فالذاكرة هي الوعاء الذي يحفظ الخبرات والتجارب التي اكتسبها الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته وفي ذلك يقول برجسون : " فالذاكرة عندنا هي وعاء البقاء ، وخادمة الزمان التي تحفظ لنا الكثير من صور الماضي المتركمة " (١٠) ، فهي تحفظ الخبرات السالفة التي تكون عوناً للإنسان في حياته فهي تكون في الإنسان إدراكاً يستعين به الإنسان في كل ما يتعرض له من مشكلات وبرجسون يؤكد أن هناك ضربين من الذاكرة : ذاكرة الجسم وهي تسترجع الماضي إلى الحاضر بطريقة آلية نفعية فهي تتكون من العادة . والنوع الثاني من الذاكرة هو الذاكرة التصويرية الخالصة ، تختزن الماضي كله وتحيا في ديمومة مستمرة وهي طريقة تتكون من الاعتماد على التذكر وفي تعلم الدروس من خلال الاستظهار ، وهذه الذاكرة تعمل على استدعاء الأحداث الفريدة التي اختزنتها وهي ذاكرة تصويرية أكثر منها مادية ، على عكس النوع الأول من الذاكرة " (١١) .

والذاكرة عند برجسون يستعين بها الإنسان في كل ما يعرض له من مشكلات ، فالذاكرة هي التي تحفظ هذه الخبرات والتجارب المكتسبة ، كما أن وظيفتها هي استدعاء هذه الخبرات التي مرت بنا في الحياة الماضية " فكل ما شعرنا به وفكرنا فيه وأردناه منذ طفولتنا الأولى ماثل

(١٠) أحمد أمين " قصة الفلسفة الحديثة " مرجع سابق ، ص ٣٦٩ .

(١١) Peter Sondiford " Educational Psychology " London, Longmans Green Co., 1934. P.237.

أماننا وباسط ذراعيه نحو الحاضر الذى سيلحق به " (١) ، وكل هذه التجارب والخبرات والاحساسات والأفكار التى تعلمناها منذ الطفولة واكتسبناها تحفظها الذاكرة ، وهى موجودة فى " اللاشعور " — وهذا هو تعبير برجسون — وهى تساعد على إنتاج مجد وحل للمشكلات التى يتعرض لها الإنسان . ويقول برجسون : " وفى الواقع ما نحن وما هى طباعنا إن لم نكن ذلك المزيج المركز للتاريخ الذى عشناه منذ ولادتنا ، بل قبل ولادتنا ، ما دمنا نجىء إلى الحياة مع استعداداتنا الوراثية " (٢) .

وفى ذلك إشارة إلى أهمية الخبرات السابقة على حياة الإنسان التى اكتسبها الآخرون ومدى تأثيرها فى تشكيل وبناء الذات الإنسانية عند برجسون ، فليس بالطبع أن يتعلم الإنسان من الخبرات التى مر بها فقط بل إنه يتعلم من خبرات السابقين عليه وهى الخبرة غير المباشرة .

خلاصة القول : أن الذات الإنسانية فى تغير وتطور دائم وتشكل مستمر من خلال خبرات مقصودة أو غير مقصودة وتجارب وخبرات مباشرة وغير مباشرة . كل ذلك يشكل الذات الإنسانية تشكيلا يجعلها قادرة على التوافق مع البيئة التى تعيش فيها ، وتساهم فى تطورها وتقدمها ، من أجل إيجاد المجتمع الفاضل الذى تسوده القيم والمثل العليا التى دافع عنها برجسون بصرخة عالية ضد المادية التى سادت أوروبا .

فالمثالية المعاصرة فلسفة ترى أن الطبيعة الإنسانية فى حالة من التغير والتطور المستمر ، يترتب على ذلك قابليتها للتعديل من جهة كونها تستطيع التعلم وزيادة قدراتها الكامنة على التغير ، ولذلك يمكن تنمية

(١) برجسون - التطور الخالق ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥ .

القدرات العقلية للإنسان سواء كان من ناحية التذكر أو الفهم أو الذكاء .
لذلك فالمثالية تعارض المذهب القائل بثبات الذكاء لدى الإنسان والذي
ترتب عليه في فلسفة التربية التي تقوم عليه الحتمية الاجتماعية " ورأى
بعضهم في هذا المذهب ما يبرر نظام الطبقات الاجتماعية فهم يعتقدون
أن الأفراد الذين يكون حاصل ذكائهم عاليا نتيجة لقدراتهم الممتازة
يرتفعون إلى القمة في سلم الطبقات الاجتماعية " (١) .

" أما الذين يكون حاصل ذكائهم منخفضاً نتيجة لاستعداداتهم الضعيفة
فيبقون في الأدنى ويكون على المدارس ، تبعاً لذلك ، أن توجه الفريق
الأول إلى الدراسات الفكرية العالية، بينما توجه الفريق الثاني نحو منهاج
مهني خاص .

فإذا أضفنا الآن إلى هذا الرأي القائل بأن المثل يميل إلى ولادة مثل له
كان هناك عندئذ ما يجيز لنا أن نأمل من أطفال الأسر المجتمعة في مكان
عال من الحلقات الاجتماعية والاقتصادية أن يكونوا أقدر على الإفادة من
فرص البقاء الطويل في المدرسة من الأطفال الذين يأتون من الجماعات
ذات الدخل المنخفض . ونكتفي هنا بهذا القدر من المناقشة دون توسع
في الحديث عن استخدام بعض المفكرين هذا النوع من المنطق في تأييد
الفكرة القائلة بضرورة منح الفرص التربوية العالية لجنس متحكم متسلط
من أجناس البشر ، وضرورة تمييزه على جنس أدنى منه وذلك نتيجة
لتقدم الثقافة عند الأول تقدماً يؤخذ دليلاً على سموه في قابلية الإبداع
والأصالة المتوارثة بين أفرادهِ " (٢) .

(١) Brubacher " Modern Philosophies of Education" P.57-58.

(٢) Ibid P.58 .

وقد لقي مذهب الحتمية الاجتماعية معارضة شديدة من المثالية المعاصرة التى تؤمن بحرية الإنسان فهو منشئ أفعاله وسيد مصيره وهو قادر على تحمل مسئولية سلوكه ، وفى الفصل الأخير من الرسالة يتم تناول قيمة الحرية عند الفلاسفة المثالية المعاصرين وإذا كان مذهب الحتمية الاجتماعية قد لقي معارضة شديدة من المثالية المعاصرة فإنه قد آن الأوان للإشارة إلى الأساس الاجتماعي للطبيعة الإنسانية فى الفلسفة المثالية المعاصرة .

ثانياً : الأساس الاجتماعي للطبيعة الإنسانية :

إن النظر إلى الطبيعة الإنسانية من وجهة نظر اجتماعية تؤكد أن الإنسان مدنى بطبعه – يعيش فى بيئته مع الآخرين ، ولذلك ترتبط الطبيعة الإنسانية بالعائلة، والمجتمع ، والدولة ، والعالم كله ، فالإنسان جزء من المجتمع .

إن فيلسوف التربية يسعى لفهم الأساس الاجتماعي للطبيعة الإنسانية ، فالإنسان منذ ولادته يكون معتمداً على الآخرين فى حياته ، والفرد جزء من المجتمع يعيش مع الآخرين فى علاقات اجتماعية .

١ – العلاقة بين الفرد والمجتمع :

وترى المثالية المعاصرة أن العلاقة بين الفرد والمجتمع لا تخرج عن أمرين : الأمر الأول أن يخضع الفرد للمجتمع ، والثانى أن يتجاوز الفرد حدود الجماعة .

وفى الحالة الأولى المجتمع يرسم للفرد حياته ، ويخطط له والفرد يتشبع بعاداته وقيمه السائدة ، أو كما قال لالاند " الجماعة هى معلمة الفرد ، والفرد جزء من المجتمع ويجب أن يتعلم احترام وطنه كما نعلمه القراءة والكتابة " (١) .

ولا يعنى ذلك أن المثالية المعاصرة ترى أنه يجب المحافظة على الوضع القائم باعتباره وضعاً مثالياً . ولكن المثالى المعاصر يرى أنه لابد من أن تخضع عادات المجتمع للنقد والتحليل ، أو كما ذهب برنشفك لابد من الإقلاع عن التقاليد الزائفة . والطبيعة الإنسانية للفرد ترتبط بالعائلة والمجتمع والدولة والعالم ذلك لأن الفرد جزء من المجتمع والدولة والعالم ، فيقول لالاند " إن الجماعة بأسرها كائن ليس أقل منا شخصية ، وأنه لا يتعذر علينا إدراك وحدته إلا لأننا لسنا فى مستواه واللغة الدارجة مملوءة بالتعبيرات التى تجعل الحكومة رأس الدولة ، وطرق المواصلات شرايين ، وأسلاك البرق جهازاً عصبياً " (٢) .

وبما أن الدولة على المدى البعيد هى شخصية أضخم من أى فرد ، وأنها فى الواقع كيان كلى أكثر أهمية وأضخم من أى فرد ، وأنها فى الواقع كيان أكثر أهمية من أجزائها ، فيجب على الطالب أن يتعلم احترام وطنه ومجتمعه إن المجتمع يرتبط أعضاؤه بعضهم ببعض ارتباط خلايا الكائن الحى ، أو ارتباط أعضاء قرية النمل : والطبيعة حين أرادت للإنسان أن يكون حيواناً اجتماعياً قد أرادت له هذا التضامن الوثيق " (٣) . والمجتمع

(١) لالاند " محاضرات فى الفلسفة " ترجمة أحمد حسن الزيات ويوسف كرم ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ، ١٩٩٥ ص ٥٣ .

(٢) لالاند " محاضرات فى الفلسفة " ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

(٣) برجسون " منبع الأخلاق والدين " مرجع سابق ، ص ٩٠ .

يتكون من عادات يفرضها المجتمع على الفرد ابتغاء المحافظة على ذاته ،
والتربية هنا تعمل على غرس هذه العادات لدى الفرد .

وفى ذلك يقول برجسون : " إن ما اختزنه الطفل منذ بزوغ الوعي فيه ،
وهو يختزن فى نفسه كل ما أكسبته إياه الإنسانية وقدمته له فيما تلقنه من
علم وتفرض عليه من تقاليد ، وفيما تحيطه به من أعراف ومؤسسات ،
بل وفى قواعد النحو ومفردات اللغة وإشارات الكلام " (١) . ولأن من
الضرورى للمجتمع أن يحافظ على بقائه ، ويعمل على تحقيق وحدته
وتماسكه ، فهو من أجل ذلك يقوم على الضغط على الأفراد بجهاز من
العادات والتقاليد تنحصر مهمته فى صيانة كيان المجتمع ، فيكون
كالرباط الذى يجمع بين الأفراد مثل الرباط الذى يجمع بين خلايا الجسم
الواحد أو بين نمل القرية الواحد " ويجب على الطالب أن يتعلم احترام
وطنه الذى يعيش فيه ، والذى ولد فيه ، ويجب عليه أن يدرس المقومات
الثقافية للأمة كما يدرس البيئة المحلية التى يعيش فيها حتى يتسنى له أن
ينمى فى نفسه إحساساً قوياً بالولاء للمثل العليا " (٢) .

ويقول لالاند : " إن كل فرد يولد ويربيه أفراد بالغون ، يجد نفسه
محوطاً بشبكة محكمة من التعاليم والأوامر ، فيبدأ بأن يتعلم لغة ،
فيتسرب إليه كل ما يأتى من اللغة بقوة ورسوخ عظيمين ، لأنه مكتسب
فى السن التى يكون المخ فيه أقدر على تحصيل العادات وحفظها " (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٩١ .

(٢) محمد منير مرسى " فلسفة التربية " مرجع سابق ، ص ١٧٦ .

(٣) لالاند " محاضرات فى الفلسفة " ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

وهو يتحدث هنا عن التنشئة الاجتماعية حيث أن الفرد يعيش مع الآخرين ثم يتشرب منهم العادات والقيم السائدة وثقافتهم ولغتهم ، " فمن المؤكد أن كل جماعة تحدث في أفرادها تأثيراً عقلياً قوياً " (١١) .

ويقول لالاند : " فالجماعة كأنها معلمة الفرد تقدم للقوانين المنطقية مادتها الأولى ، وتعتبر عنها أولاً بلغتها ولكن هذه القوانين تتخلص منها بتراجع جميل إلى جعلها مستقلة وإلى تهيئة الفرد لأن يصوغ المجتمع نفسه في صيغة موضوعية تتألف من معان وعلامات " (١٢) .

فالجماعة هي معلمة حيث أن كل فرد منا يكتسب عاداته واتجاهاته ، ومعتقداته وضروب تعصبه من يوم ولادته إلى الآن من مجتمعه " (١٣) ، فالإنسان حيوان اجتماعي يعيش مع الآخرين بمعنى إنه يظهر دافعاً اجتماعياً لتكوين أنواع من البناء الاجتماعي أكثر تعقيداً ، ويحدث النمو في الشخصية الإنسانية من هذا النسيج المعقد من التنظيمات الاجتماعية بطريقة تجعل من أنماط العادات ونظم القيم التي تكون عاملاً مساعداً للفرد على أن يعيش في مجتمعه الخاص .

إن قدرة المجتمع التربوية لا تتحقق خلال التعليم الشكلي (كقراءة كتب التربية الوطنية أو الاجتماع) ولكن عن طريق الإسهام الواقعي للفرد كمواطن في حياة المجتمع فاحترام القوانين والاعتراف بسلطة المجتمع يمكن أن يتعلمها الصغار في وقت مبكر عن طريق ملاحظتهم للكبار " (١٤) .

(١١) المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(١٢) المرجع السابق ص ٥٣ .

(١٣) اليس ويتزمان ، التربية الاجتماعية للأطفال ، ترجمة فؤاد البهي السيد ، سلسلة دراسات سيكولوجية ،

القاهرة : دار الطباعة ، ١٩٦٥ ، ص ١١ .

(١٤) فينكس " فلسفة التربية " مرجع سابق ، ص ٣٤٢ .

" فالجماعة تبدو كأنها معلمة الفرد " (٢٠) . ويحاول المجتمع كمرب أن يستمر وجوده من جيل إلى جيل ، فالهدف الأساسي من التربية هو أن تنتقل للصغير الثقافة الاجتماعية من خلال عملية التنشئة الاجتماعية . ولا لاند يتحدث أيضا عن تضام للجماعات الأسرية ويعارض بهذا سينسر الذي يؤكد بفضل قانونه في التطور أن التنوع الأسري لابد أنه صدر عن مجانسة أولية وتعميم التعليم العام وانتشار المدارس التي تنشئها الدولة ، ينتزع الأولاد شيئا فشيئا من التوجيه المطلق للأسرة ابتغاء جعلهم تحت إشراف الجماعة " (٢١) .

ويتحدث لا لاند عن التقدم الاجتماعي باعتباره ينحو نحو التشابه فالمجتمعات تتجه نحو التشابه ويساعد على ذلك : " الترجمات تنقل باستمرار من لغة إلى أخرى المؤلفات المختلفة ، ومقالات الصحف ، والخطب والعلاقات الصناعية والتجارية ... ، وينتج عن هذا أنه ليس فقط كل الألفاظ الاصطلاحية المخترعة تصير مشتركة تماما بل وأيضا تنتقل العبارات الخاصة من بلد إلى آخر شيئا فشيئا ... وبالتالي فالتقدم ينحو نحو التشابه " (٢٢) .

المجتمع إذن يتجه نحو الوحدة والتشابه وإزالة الفوارق والطبقات داخل المجتمع . كما أن المجتمع العالمي كله يتجه نحو التشابه ، والعقل يعمل دائما إلى التقريب بين الناس وإلى تكوين مجموعة من الحقائق تؤلف تراثا مشتركا بين الجميع " (٢٣) .

(٢٠) لا لاند " محاضرات في الفلسفة " ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

(٢١) بنروبي " تيارات ومصادر الفلسفة في فرنسا " ، مرجع سابق ، ص ٩٢ .

(٢٢) المرجع السابق ص ٩٣ .

(٢٣) يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " ، مرجع سابق ، ص ٤٥٣ .

فالحياة عند لالاند فى تطور مستمر ، هذا التطور ينتقل من الاختلاف إلى التشابه ، ومن الكثرة إلى الوحدة ، فالعقل يعمل على الانتقال من الكثرة إلى الوحدة والانتقال من الاختلاف إلى التشابه . وكذلك المجتمع ينتقل من الاختلاف إلى التشابه . والتربية هى التى تعمل على نقل المجتمع من الاختلاف إلى الوحدة والتشابه ، ويساعد ذلك الوسائل الآتية من مدارس وترجمة ومؤلفات ومقالات وصحف وخطب ، وحتى العلاقات التجارية والصناعية ، والتربية تهدف إلى إيجاد مجتمع الوحدة المتشابه "وهذه الاعتقادات هى التى حملت لالاند على التعاون مع لوى كوثيرا فى تكوين اللغة الدولية (أيدو) " Ido " ونشرها " (١) . ، وكذلك إنشاء (معجم الفلسفة) ، ولالاند فى دراساته فى الفلسفة الأخلاقية والتربية يسعى لتطبيق نظرية التضام على الواقع العملى بإبراز ما هو مشترك فى كل القواعد الأخلاقية ، ومن هنا نفهم لماذا يعتنى لالاند بتشجيع التقارب بين العقول من أجل إيجاد مجتمع الوحدة المتشابه ولذلك نادى لالاند بضرورة " العمل على تقليل الفروق بين المواطنين ، وهى الفروق التى يولدها اختلاف الطبقات والوظائف ، ومحاربة كل استغلال وكل ما ينجم عنه من عدم مساواة وإشراك الشعب كله بقدر الإمكان فى الحياة العقلية وفى ثقافة العقول الأكثر نمواً ونضوجاً " (٢) . فالتربية هى الوسيلة الهامة التى تعمل على تحقيق هذا التقارب بين العقول ، ومن خلال إشراك كل الشعب فى الحياة الثقافية والأخلاق والفنون والعلوم التى تعمل على تحقيق هذا التطور الذى يهدف إلى الوحدة التى تقوم على التشابه بين الأفراد ويصبح الهدف الأكبر للتربية عند لالاند هو إقامة هذه

(١) بنزوبى "تيارات ومصادر الفلسفة فى فرنسا" ، مرجع سابق ، ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٥ .

الوحدة العالمية بين البشر ، والتربية هي الوسيلة التي تستطيع ان تحقق هذا الهدف ، ويشير لالاند إلى أهمية المعلم في العملية التعليمية وكذلك اللغة ودورها في التربية والتعليم وهذه هي النقطة التالية .

٢ - أهمية اللغة في التعليم عند لالاند :

ويرى لالاند أن اللغة هي جزء من التراث الثقافي للجنس البشرى ، وتنتقل من جيل إلى جيل عن طريق التربية ، ولذلك فإن من القدرات الهامة التي يجب أن تنميها التربية لدى الإنسان القدرة على استخدام اللغة .

ويتحدث لالاند عن الأهمية الكبرى لوضوح اللغة في التعليم مشيراً إلى تجنب أنواع الأخطاء اللغوية فيقول : " فإذا أردنا أن نحصى أنواع الأخطاء في اللغة نجد أنها ترجع إلى خطأ منطقي ، وإما إلى خطأ فني بل أحيانا إلى خطأ خلقى كالغموض والإبهام وعدم المطابقة ، وهي تحول دون فهم المراد ، أو تقتضى جهداً لفهمه ، وذلك يكلف الناس عناء لا خير فيه " (٨) .

والإنسان يعيش مع الآخرين ويتعلم منهم اللغة ، ولذلك من يعيش في مجتمع إنجلترا يتعلم اللغة الإنجليزية ، ومن يعيش في الصين يتعلم اللغة الصينية وهكذا ، ولالاند يرى أن التقدم البشرى يتجه نحو التشابه وأن هناك لغة كلية هي لغة كل البشر ، " الألفاظ الاصطلاحية المخترعة صناعياً تصير مشتركة تماماً ، وبل أيضاً تنتقل العبارات الخاصة شيئاً فشيئاً من بلد إلى بلد ، متخذة مكانها في اللغة الكلية " (٩) . وكما تعاون

(٨) لالاند " محاضرات في الفلسفة " ، مرجع سابق ، ص ٤٣ .

(٩) بنروبي " مصادر وتيارات في الفلسفة المعاصرة في فرنسا " مرجع سابق ، ص ٩٣ .

للالاند مع لوى كوتيرا فى تكوين اللغة الدولية " أيدو " Ido ، وكما أشار لالاند إلى أهمية اللغة باعتبارها أهم وسائل الاتصال بين الناس ، بالإضافة إلى أهميتها فى التعليم والتعلم ، فالمعرفة والعلوم والآداب يتم تعليمها من الآخرين وإلى الآخرين عن طريق اللغة .

٣- الفروق الفريد عند لالاند :

وإذا كان لالاند أكد على أن الفرد هو جزء من المجتمع وأن المجتمع يلعب دوراً كبيراً فى تربية الأفراد ، فإن لالاند يرى إن هناك فروقاً فردية بين الأفراد فيقول لالاند أولاً " إن كل إمريء ولد فى يوم كذا وفى مكان كذا فإننا نستطيع أن نلاحظه منذ ولد إلى أن يموت متتبعين نموه وانتقالاته وما يحدث فى حياته . ثانياً مجموعة الخصال اللازمة له فى شخصه المادى والمعنوى كمزاجه وحاسته وذوقه وأفكاره ، وكل ما من شأنه أن يقضى بأن لا سبيل إلى أن يوجد فى الحياة اثنان لا يمكن التمييز بينهما ... كل ذلك يكون فيه خلقاً فريداً ويجعل له موقفاً وحيداً يطبع فرديته بطابع خاص ويسم شخصه بسمه ظاهرة " (١) .

الخلاصة أن هناك فروقاً بين الأفراد فى الجوانب الجسمية والعقلية والوجدانية والنفسية وعندما ننقل إلى التربية نجد أن هذه الفروق الفردية تلعب دوراً كبيراً فى تربية وتعليم الأفراد صغاراً كانوا أو كباراً فالتلاميذ فى الفصل ليسوا متساوين فيما يملكون من صفات وخصائص جسمية وعقلية رغم تقاربهم فى السن ، وهذه الفروق تؤثر على كفاءة وأداء التلاميذ من الناحية التربوية فقد يوجد بينهم من الأطفال من هو سريع

(١) لالاند " محاضرات فى الفلسفة " (مرجع سابق) ص ٤ .

التعلم ومن هو بطيء التعلم وينبغي علي المدرس أن يتخذ دائماً موقفاً ملائماً لهذه الفروق بين التلاميذ ، فبعض التلاميذ يستطيع في سهولة أن يتابع الدرس ويركز انتباهه ، ويصل مع المدرس إلى النتيجة. في حين يعجز آخرون عن تركيز الإنتباه ويرجع ذلك إلى تفاوت بينهم ويتطلب من المدرس أن يغير أحياناً من طريقته في التدريس لتلائم هذه الفروق ، وقد يضطر أحياناً إلى تفريد التعليم أي يعمل مع كل تلميذ وفقاً لاستعداداته وقدراته العقلية والجسمية من أجل إنجاح العملية التعليمية ، وتتضح الفروق الفردية بين الأفراد في استجاباتهم إزاء الخبرات الجمالية والفنية التي يتعرضون لها فقد يستجيب بعض التلاميذ لنغمات من الموسيقى مثلاً علي أساس كونها نغمات غليظة أو حادة مرتفعة أو منخفضة فبينما يستجيب فريق آخر من التلاميذ إلى النغمات ذاتها بالإحساس بدفئتها ورقتها وتأثيرها الملطف " (٨) .

ويتحدث لالاند عن الفن بوصفه عاملاً من عوامل التواصل بين الأفراد وماله من قوة في التقريب بين الأفراد ورغم أنه يعترف بوجود هذه الفروق الفردية ، إلا أنه يرى التقدم البشري يعنى الاتجاه نحو التشابه وإزالة الفروق الفردية بين الأفراد وبين المجتمعات ، وقد أشرنا إلى علاقة الطبيعة الإنسانية والطبقات الاجتماعية وفي ذلك الموضع يرى لالاند وغيره من الفلاسفة المعاصرين المثاليين " إن من المبادئ الهامة في التربية والتعليم مراعاة الفروق الفردية بين الأفراد فيجب على

(٨) جركرود دريسكول ، كيف تفهم سلوك الاطفال ، ترجمة رشدي قام منصور : مجموعة الكتب الدراسية والمراجع الأمريكية المترجمة - القاهرة - طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ص ٢١ ، ٢٢ .

المدرس أن يدرك ويتدرب على التعامل مع قاعدة الفروق الفردية بين الأطفال فى المدرسة " (١٠).

ثالثاً : موقف لالاند من ثنائية الطبيعة الإنسانية من منظور تربوى :

ويتحدث لالاند عن الثنائية فيقول " حقاً إن فى الإنسان ثنائية فهو حيوان من جهة ومدنى من جهة أخرى " (١١).

ويقول بنروبى " ولالاند يجد الثنائية التى تبقى على نحو ما خارجة عن المادة الخام بل وعن الحيوان تصير باطنية فى الإنسان " (١٢) ، ويقول أيضاً " فى دروسه عن العقل المكون والعقل المتكون ينظر لالاند فى وجود طبيعة عالية وطبيعة سافلة فى الإنسان وحق الأولى فى السيادة على الثانية " (١٣) .

ويعيب لالاند على مذهب التطور قائلاً إنه " يتجاهل ثنائية الإنسان " (١٤). ومن هنا فإن لالاند ينظر إلى الإنسان على أنه ثنائى أى عقل وجسم والعقل أسمى ولذلك فهو له حق السيادة على الجسم ومن هنا فإن التربية تركز على العقل والروح ، وبصفة عامة فإن المثاليين يعتقدون أن الفكر هو الواقع الصحيح سواء كان فى الوجود أو فى الإنسان ولكن ليس كل المثاليين يرفضون المادة ولكن وراء عالم المادة عالم الفكر وهو

(١٠) Milly Cowles " perspectives in the Education of disadvantaged Childern" London, International Textbook, Co. 1969, P.294.

(١١) لالاند "محاضرات فى الفلسفة" مرجع سابق ، ص ١٥٦.

(١٢) بنروبى " مصادر وتيارات الفلسفة فى فرنسا " مراجع سابق ، ص ٩٤.

(١٣) المرجع السابق ص ٩٧ .

(١٤) يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة" مرجع سابق ص ٤٥٣.

عالم الحقيقة " (١٨) ، والتربية الصحيحة التي تهدف إلى تنمية العقل وتهذيب الروح " فالفيلسوف المثالي يؤكد على أن العقل والروح أهم صفات الإنسان وهذا السبب هو الذي قاد بعض المثاليين إلى أن يركزوا تماماً على تربية الفرد " (١٩) . ولذلك فإن التدريس يتجه نحو تعليم الأفكار من خلال استعمال المناهج الكلاسيكية والكتابات والفنون " (٢٠) . وبالتالي التربية تركز على الفن والعلوم النظرية التي تقود الدارس للفلسفة والرياضة " ولذلك فإن المثاليين لا يؤكدون على دراسة الطبيعة ... بل الهدف الأسمى للتربية أن توجه الفرد إلى البحث عن الحقيقة الروحية ، والبحث عن الحقيقة الروحية هو نفسه البحث عن الله ، والتربية الحقيقية هي التي تقود الإنسان إلى الله ، وبالتالي فهي تربية تتعلق بالأفكار لا بالمادة " (٢١) . إذن الإنسان مركب من عقل وجسم من روح ولحم ، وليس هذا التقسيم للإنسان إلى عقل وجسد إلا فرعاً من ذلك التقسيم الثنائي للكون وأن النتائج التربوية التي تتجم عن اتباع النظرية الثنائية في طبيعة الإنسان ليست صعبة التصور ، " وإن هذه النظرية تقود الكثيرين إلى التمييز بين نوعين من التربية : نوع عقلي لتفسير المظاهر العقلية ، ونوع ديناميكي لشرح المظاهر الجسدية ، وتظل التربية في أساسها في كلا الطرفين تدريباً للعقل وتمريناً لملكاته (٢٢) .

(١٨) Howard Ozman, Samuel " Philosophical Foundation of Education " p.4.

(١٩) Ibid .p.18 .

(٢٠) Ibid .p.23.

(٢١) Ibid . p. 16.

(٢٢) JOHNS. BRUBACHER. " Modern Philosophes of Education. " p. 45 .

"ولما كان العقل أو الروح هو الذى يبعث الفاعلية فى الجهاز العصبى العضلى للجسم فإن هذا العقل هو الذى يبذل المربون جل جهدهم فى الاهتمام به" (١).

وقد وجه إلى النظر إلى ثنائية الطبيعة الإنسانية عدة انتقادات من الناحية الفلسفية والتربوية ، ومشكلة الفيلسوف المثالى أن ينظر إلى الإنسان على أنه روح وجسم والروح خالدة ، فإذا كانت الروح خالدة فإن طبيعة الروح غير طبيعة الجسم ، فالروح يمكن أن تستقل بذاتها ولكن الجسم لا يمكن أن يفعل ذلك ، فالمثالى يرى أنه قد توجد صورة بدون مادة ، ولكن الواقعى يرى أن الصورة لا يمكن توجد إلا فى المادة، فمشكلة الثنائية ترتبط بالخلود الروحى ومن يذهب إلى الثنائية فهو يذهب إلى خلود الروح ومن ينكره فهو مضطر إلى إنكار الخلود الروحى ولكن من الناحية التربوية تواجه الثنائية العديد من الصعوبات ، فالنتائج التربوية للنظرية الثنائية فى طبيعة الإنسان ليست بريئة من التضارب فالإنسان لا يستطيع إن يذهب إلى المدرسة إلا بعقله وجسمه" (٢)، وبعد هذا العرض لقضية الثنائية وانعكاساتها التربوية فإن الدراسة تنتقل إلى دراسة الطبيعة الإنسانية بين الخير والشر عند الفلاسفة المعاصرين .

رابعاً : الطبيعة الإنسانية بين الخير والشر :

١- ثمة خلاف بين الفلاسفة حول طبيعة الإنسان فمنهم من نظر إلى الإنسان نظرة تشاؤمية ، فرأى أن الإنسان شريـر بطبيعته يتصف بالجهل والفوضى والكذب والأنانية والغش ، فهو ليس حيواناً مدنياً بل هو همجى

(١) Ibid . p. 45.

(٢) Ibid . P.45.

متوحش ، ينفر من النظم والقوانين ، ويسعى وراء مصلحته حيثما توجد ، وخير من أشار إلى هذه النظرة التشاؤمية الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز ، فهو يرى أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان ، وأن الكل فى حرب ضد الكل ، وقد اعتنق هوبز النزعة المادية ، ففسر العالم وأحداثه بالمادة واستبعد الروح ، ولواحقها وأنكر وجود النفس مستقلة عن الجسم ، وبهذا يبدو الإنسان فى مذهبه أنانيا بفطرته ينفر بطبعه من الاجتماع بغيره من الناس ، أو كما قال هوبز : إذا هم برحلة سلح نفسه ، إذا أسلم عينيه للنوم أغلق أبوابه ، وحتى إذا استقر فى بيته أقفل دواليبه ، وهكذا بدأ الإنسان عنده ذئبا لأخيه الإنسان لا يتردد القوى فى الاعتداء على الضعيف^(١٧).

ولم يكن هوبز وحده الذى يرى أن الإنسان شرير بطبيعته ، ولكن هناك الفيلسوف الألماني شوبنهاور الذى يرى أن " الحياة شر وكل ما نصادفه من خير فهو زائف ، وإذا كنا نتصور الحياة خيرا ... فهذا راجع إلى ما تبهرنا به الإدارة الكليّة من خيرات مظنونة وتثير فنيا من آمال كاذبة^(١٨).

ويرى شوبنهاور أن المجتمع قائم على الخديعة والزيف ، وكل إنسان يتخذ له قناعا خاصا يستر به حقيقته ، ويدارى به ما بنفسه من شرور وأحقاد فالبعض يتخذ قناع الدين ، والبعض يلبس قناع الوطنية ، أو التظاهر بالفضيلة وبين جنبى كل إنسان تقيم أنانية ضخمة غلبة تجتاح حدود

(١٧) توفيق الطويل " فلسفة الأخلاق " القاهرة ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثالثة ،

١٩٧٦ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(١٨) يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " مرجع سابق ص ٢٩ .

الحق وتكتسح أسوار العدل فى حرية تامة ، وفى غير تردد ، ونشاهد ذلك بصورة مصغرة فى حياتنا اليومية ، ونراه فى الصورة مكبرة بكل صفحة من صفحات التاريخ ، ويشد أزر هذه الأنانية الكامنة فى كل نفس نبع من الكراهية الحقد والضغينة والخبث فياض الموارد طاغى العباب ، وفى قلب كل إنسان يرقد حيوان متوحش شديد الضراوة ينتظر فريسته ليزلزل زلزاله ويثير زوابعه ^(١). ويقول شوبنهاور: " الحياة شر وكل ما تصادفه من خير فهو زائف " ^(٢). وفى الفكر العربى نجد الأديب المفكر أبا العلاء المعرى الذى كان سيىء الظن بالطبيعة الإنسانية شديد الازدراء لها ، بارعاً فى الكشف عن عيوبها ، فيصورها على أنها تتميز بالقوة والسوء ويقول :

وكلنا قوم سوء لا أخص به ... بعض الأنام ولكن أجمع الفرقا
وهو يعلل لؤم الإنسان وخسته وحقارته ، بفساد الأصل والتواء الغريزة فيقول :

تفرع الناس عن أصل به درن ... فالعالمون إذا ميزتهم شرع
ويذهب إلى أن الإنسان أنانى بطبعه خبيث حاقد فيقول :
بنى حواء كيف الأمن منكم ... ولم يؤهل بغير الحق روع
ويذهب أبو العلاء مذهب هوبز فى النظر إلى الإنسان على أنه ذئب لأخيه الإنسان فيقول :

وجدت الناس فى جبل وسهل ... كأنهم الذئاب أو السباع

(١) على أدهم " بين الفلسفة والأدب " القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٨ ص ٢١ .

(٢) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة (مرجع سابق) ص ٢٩٥ .

وإذا كان الإنسان أنانياً وشريراً بطبيعته ويتصف بالرياء والنفاق والفوضى والظلم والكذب... فلا بد من تهذيب أخلاقه وتقويم طباعه ومهمة التربية تعديل سلوكه الهمجي إلى سلوك أرقى وتنمية قدراته والسمو بالروح إلى عالم أفضل . وتكون مهمة المعلم تعليم الطفل حب الأشياء الحسنة دون النظر إلى ميول المتعلم ، ويستغل المعلم هذه الميول الشريرة في تحقيق مهمة التربية " (١٠) . ويرى كروتشه أن الحياة هي كفاح دائم ضد الشر وصراع دائم فهو يقرر مع هيجل لا مع أفلاطون أن الشر " لا وجود " بمعنى أنه المحرك الدائم للحياة الروحية وما الحياة — في نظره — سوى كفاح مستمر ضد الشر ، ووصول تدريجي إلى الخير والحق أن كروتشه يتصور الحياة على أنها صراع دائم وجهد مستمر لا مجرد تحسر فارغ على المثل العليا ، أو مجرد حنين أجوف إلى بعض المدن الفاضلة وليس من شأن " الشر " سوى أن يكون بمثابة حافز يدفعنا إلى العمل على النضال المستمر من أجل إبداع الخير وتحقيق القيم . فالحياة الأخلاقية (في نظر كروتشه) حياة عملية جادة ، تتصرف عن كل " صوفية ، وتعزف عن كل ميل إلى الزهد أو النقشف ، وتتفر من كل دعوى إلى الطهارة السلبية ، وكأن الأخلاق مجرد عواطف طيبة نبيلة ، وأهل الأخلاق — في رأى فيلسوفنا — إنما هم أولئك الذين لا يخشون أن يدينسوا مثلهم العليا بما فى العالم من خبث وشر وخطيئة ، بل يجعلون من حياتهم الأخلاقية صراعاً مستمراً ضد الشر فالحياة الخلقية تعتمد على النضال المستمر من أجل إبداع الخير وتحقيق القيم وذلك لأن الحياة كفاح وصراع بين الخير والشر ، والحياة الروحية انتصار للخير وغزو لميدان الشر ولا مناص من الاصطدام المستمر ،

(١٠) على أدهم " بين الفلسفة والأدب " مرجع سابق ، ص ٢١ ، ٢٢ .

والتغلب على القوى المضادة للخير ، والتربية هنا هي غزو لميدان الشر - كما يرى كروتشه - بل هي نضال مستمر من أجل تحقيق الخير ، فالخير والشر فى صراع مستمر ، والتربية الصالحة هي التى تغلب نوازع الخير فى الإنسان على نوازع الشر .

٣- الإنسان خير بطبيعته :

وهناك اتجاه آخر على العكس من الاتجاه السابق ينظر إلى الطبيعة الإنسانية نظرة تفاؤلية فيرى أن الإنسان خير بطبيعته ، ويتزعم هذه النظرية الفيلسوف جان جاك روسو فى نظريته عن الخير الفطرى عند الانسان " حيث يرى روسو أن الإنسان خير بفطرته ، ولا يتحول إلى الشر إلا نتيجة للظلم والضغوط التى يفرضها عليه المجتمع " (٨) . وإذا كان الإنسان حيواناً اجتماعياً ، كما قال أرسطو فإن الاجتماع مفسدة فيزعم روسو " أن العلوم والآداب والفنون ... أنها كلما تقدمت أمعنت فى إفساده " أى الإنسان ويستشهد بمصر القديمة وأثينا وبيزنطة والصين إذ مالت إلى الانحطاط أو غاصت فى الرذيلة حالما ساد فيها حب العلوم والفنون ، إنها تولد الرذيلة لأنها تطيل الفراغ ، وتدفع إلى الترف وتتميه ، ويقول روسو : " أيتها الفضيلة أنت العلم السامى للنفوس الساذجة : أهناك حاجة لكل هذا العناء ، وهذه الأدوات لكى نعرفك ؟ أليست مبادئك مطبوعة فى جميع القلوب ؟ أو ليس يكفى لتعلم قوانينك أن نخلو الى أنفسنا ونستمع الى صوت الضمير فى صمت الأهواء ؟ " (٩) .

(٨) T.Raymont "A History of The Education" London Longmans, green and , Co. 1937.P.22.

(٩) (يوسف كرم ، مرجع سابق ، ص ٢٠١ .)

والحرية هى التى تميز الإنسان فهى تبين روحانية الإنسان عند الشعور بهذه الحرية ... وبالتالي فقد أخطأ هوبز - فيما يرى روسو فى قوله : إن حالة الطبيعة تتميز بالطمع والكبرياء فإن هاتين العاطفتين لا تتشأن إلا فى حال الاجتماع ، فالإنسان المتوحد الذى كان يحيا حياة طبيعية كان كاملا سعيدا لأن حاجاته قليلة وإرضاءها سريع ، ولأنه كان حرا مستقلا فكان كل إنسان مساويا لكل إنسان ، ولكن الإنسان ينتقل من حالته الطبيعية إلى مرحلة الاجتماع بالآخرين ، وهكذا تحول الإنسان الطيب بالطبع إلى شرير بالاجتماع ، وعلى أن الاجتماع قد أضى ضروريا ، ومن العبث محاولة فضه والعودة إلى حال الطبيعة ، وكل ما نستطيع صنعه هو أن نصلح مفاصله بأن نقيم الحكومة الصالحة ونهيئ لها بالتربية المواطنين الصالحين^(٦٠).

وإذا كان الإنسان بفطرته خيرا ، فالتربية هى الرجوع إلى الطبيعة فيترك الطفل يربى نفسه بنفسه ، وبذلك ينشأ حرا جديرا بأن يكون عضوا فى دولة حرة ، وما من وسيلة لتربية الطفل لأجل الحرية إلا تربيته بالحرية ، وهذا يعنى أن التربية يجب أن تكون سلبية ما أمكن فتقتصر على معاونة الطفل فى تربيته نفسه بنفسه ، وتجتنب كل ما يضيق عليه ويقيد على أن المربي لا يقف متفرجا إذا رآه - أى الطفل - يعرض حياته للخطر بلغه بتجربته بل ينبهه وينهاه بقوة . وبرنامج التربية يشتمل على أربع مراحل هى :

(٦٠) المرجع السابق ص ٢٠١ ، ٢٠٣ .

حياة الطبيعة والحياة العقلية ، الحياة الخلقية والحياة الدينية " (١٠) . فقد أعلن روسو فى كتاب "إميل" إيمانه بطبيعة الطفل عن طريق تسليته .

وإذا كان بازيدو Basedow يذهب إلى تعليم الطفل عن طريق تسليته وإذا كان لاشالوتيه La Lhalotain يذهب إلى أهمية الانتقال من الدراسات المجردة إلى الدراسات الشيئية المحسوسة ، ويهتم بتعليم الطفل نفسه بنفسه ، فإن روسو يجمع بين هذا وذاك فى مبدأ عام شامل " اتباع الطبيعة " والتربية يجب أن توأم بين الطبيعة والناس والأشياء وهى العناصر الثلاثة التى أسند إليها روسو عملية التربية ، والتى يجب أن تتسجم بعضها مع بعض كل الانسجام " (١١) . " فإميل كان يشجع على أن يسخر القوى الطبيعية والفيزيائية لمصلحته ويستخدمها فيما فيه فائدته ، فليست الشمس السبب فى إحداث صراع له فحسب بل وسيلة ممكنة من الاستكشاف فى الغابات وتيسر له الإفلات منها إذا ما ضل طريقه فيها ، وليست النار تحرق فحسب بل هى تعاون الإنسان على استخراج المعادن من كنزها .

ويكون تحصيل المعانى النافعة عن طريق الاتصال بمواقف الحياة اتصالاً شخصياً " (١٢) ، فالإنسان عند روسو طيب وخير بطبيعته ، ولكن ما يفسده هو المجتمع بما فيه من حضارة ويمكن إصلاحه بالتربية وإذا كان الإنسان خير بطبيعته فإن التربية هى تنمية لقواه الطبيعية وقوام التربية العودة للطبيعة .

(١٠) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(١١) محمد مصطفى زيدان " مفهوم الحرية فى التربية الحديثة " القاهرة ، النهضة المصرية ، بدون تاريخ ، ص ٦٨ - ٧٢ .

(١٢) المرجع السابق ص ٧٣ .

٣ - ابن طفيل والطبيعة الخيرة :

وفى الفلسفة الإسلامية نجد الفيلسوف ابن طفيل فى قصة حى بنى يقظان يصور لنا حياً وهو طفل تربى فى جزيرة بعيداً عن الناس لأن أمه وضعت فى تابوت ونقله الماء إلى ساحل البحر ، ولكن طبيعة سمعت صوت هذا الطفل ، فأخذته إلى داخل الجزيرة التى عاش فيها حى مع الطبيعة التى حملته ، وغذته وربته ، ودافعت عنه ، ويقول ابن طفيل :

" ولم يكن بهذه الجزيرة شىء من السباع العادية ، فتربى الطفل واغتذى بلبن تلك الطبيعة ، وكانت هى ترفق به وترحمه ، وتحمله إلى مواضع فيها شجر وثمر فكانت تطعمه ، وكان حى يحاكى جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان محاكاة شديدة لقوة إنفعاله لما يراه " (١) .

ولما بلغ حى من عمره العام السابع بدأ يتعلم من الطبيعة كيف يقلد الحيوانات فى أصواتها وحركاتها ولكنه وجد " أن مخارج الفضول من سائر الحيوان مستورة بالأذنان " " فقد اتخذ من ورق الاشجار العريضة شيئاً جعل بعضه خلفه وبعضه أمامه " (٢) . وحينما شاهد النار تعجب منها " ومازال يدنو منها شيئاً فشيئاً فرأى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغالب ... وأراد أن يأخذ منها شيئاً فلما باشرها أحرقت يده " (٣) . ثم تعلم من النار أنها تحرق جسمه ، وأنها تضيء له فى الليل فهى تقوم مقام الشمس فى النهار " . وهكذا أصبحت الطبيعة المعلم الأكبر للإنسان ،

(١) عبد الحليم محمود " فلسفة بن طفيل " القاهرة ، مطبعة الدار المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ١١٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١١١ ، ١١٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٢ .

وابن طفيل ينظر للإنسان نظرة خيرة مثله مثل روسو ، وحينما كبر حتى وذهب الى خارج الجزيرة عاد إليها مرة ثانية ليعيش وحده بعيداً عن الناس ، وقال ابن طفيل : إن المجتمع أيضاً فساد ، شأنه في ذلك شأن جان جاك روسو .

٤- نقد برنشفك لجان جاك روسو :

وكذلك نجد الفيلسوف الفرنسي برنشفك يرى أن الطبيعة الإنسانية خيرة "ولكن من الخطأ أن نستنتج من ذلك — كما فعل روسو — فساد الجنس البشرى أو الحضارة الإنسانية بل كل ما هنالك أننا لم نستطيع بعد أن نحقق في أنفسنا القدر الكافي من المدنية أو الحضارة" (١) ، وبرنشفك هنا يعارض روسو حينما ذهب روسو إلى فساد المجتمع بما فيه من حضارة تشمل العلوم والفنون والآداب فإن برنشفك يؤمن بأن العلوم والآداب والفنون هي التي تهذب الإنسان .

"والحق أنه لا سبيل إلى تحقيق الوعى الخلقى ، والوعى الدينى اللهم إلا إذا تسنى لنا أن نحرر الإنسان من آرائه المبتسرة الحافلة بالأنانية وتقاليده الزائفة القائمة على الإيمان الحرفى" (٢) .

فالعلوم عند برنشفك تغرس روح النزاهة فى المتعلم ، كما أن من شأن الفن أن يبيت فى الإنسان روح التعاطف والمشاركة ، وكذلك العلم يعمل على التسامى بنا نحو مستوى الوحدة البشرية الشاملة ، فإذا كان روسو يذهب إلى أن العلوم والآداب والفنون والحضارة عامة تكمل ظاهر

(١) زكريا ابراهيم " الفلسفة المعاصرة " ، مرجع سابق ص ٩٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٦ .

الإنسان فقط ولا تكمل باطنه بل إنها كلما تقدمت أمعنت في إفساده ، فان برنشفك يرى أن صلاح المجتمع في تقدمه وتطوره ، بأن تقوم التربية بدورها الفعال في غرس الروح العلمية ، والتفكير العلمى فى أنفسنا أولاً ، وبث روح التعاطف والمشاركة ثانياً ، وتربيته الإرادة ثالثاً والأول هو دور العلوم ، والثانى هو دور الفنون ، والثالث هو دور الأخلاق من أجل تحقيق الوحدة الإنسانية الشاملة التى يأمل برنشفك تحقيقها فى الحياة، ولذلك تسير التربية عند برنشفك فى ثلاثة محاور أساسية هى :

١- التربية العقلية .

٢- التربية الخلقية وهى تربية الإرادة الإنسانية .

٣- التربية الوجدانية .

وبذلك تكون تربية الإنسان عند برنشفك تربية شاملة للإنسان من الناحية العقلية والجسمية والروحية .

وصفوة القول : إن من ينظر إلى الإنسان على أنه فى أساسه شرير ، فإن هدف التربية الكامل أن يكبت الدوافع الطبيعية الشريرة ، وأن يحل محلها دوافع مقبولة ، إذن يصبح هدف التربية أن تقدم للأفراد وسائل تغطية هذا الشر الداخلى بمظهر خير ^(٩) ، بل أفضل ما تفعله التربية أن تسيطر على القوى الغضبية الشريرة فى الإنسان بالإضافة إلى تعليم الطفل حب الأشياء الحسنة التى يجب أن يحبها ، وأن المعلم سوف يستغل هذه الميول الطبيعية من أجل تحقيق مهمة التربية ^(١٠) .

(٩) فيليب هـ. فينكس " فلسفة التربية " ترجمة محمد نبيب النجى ، القاهرة ، النهضة العربية ، ١٩٦٥ ، ص ٨٦١ .

(١٠) John S. Brubacher . " Modern Philosophies of Education . London . McGraw Hill Book , 1950. P.66.

والاتجاه الثانى : الذى ينظر للإنسان على أنه خير ، فإن وظيفة التربية هنا الاعتراف بهذا الخير وتشجيعه ، والقاعدة الأساسية فى التربية هى قبول الفرد بطبيعته ، وتنمية ميوله ، وأن الإنسان إذا ما أتيحت له الظروف الخيرة فإنه ينجح ويحقق ذاته ، وهنا تعمل التربية على تهيئة الظروف المناسبة لنمو الأفراد ، فإذا كانت الطبيعة الإنسانية خيراً فى أصلها وأساسها ، فالنتيجة عندئذ هى أن على المعلم أن ينظر إلى الميول الطبيعية لدى الطفل على أنها خير فى أساسها ويكون عليه كذلك أن يجعل أهداف التربية انعكاساً لهذه الميول الخيرة ، وأن يكون المنهج وسيلة لإطلاق هذه الميول والعمل على تنميتها ، ثم يكون على المعلم أن يمنح حرية كافية للطفل فى المشاركة فى اختيار المناهج التى سوف يتعلمها ذلك الطفل خوفاً من حدوث ما يؤذى ذلك الخير الكامن فى طبيعته (١٧) .

خامساً : التربية الروحية :

وتؤكد المثالية المعاصرة على أن الإنسان ذو طبيعة روحية فيتحدث برنشك عن الروح ، ويعتبرها مصدراً للجمال . والدين هو أعلى توكيد لحقيقة الروح فيقول : إن الحالة الشعورية التى أعدتها الحالة الدينية الصحيحة وحدها دون سواها إنما هى حالة تلك الروح التى تريد نفسها وتحس فى قرارة نفسها أنها أسمى من كل وجود حسى ، وتسعى فى الوقت نفسه سعياً حراً نحو حالة مطلقة من النقاء والروحانية (١٨) . ويستشهد برنشك بعبارته ديكارت " أن لدى فى قرارة ذاتي

(١٧) Ibid , P.66 .

(١٨) زكريا ابراهيم " دراسات فى الفلسفة المعاصرة " ص ٩٩ .

أولوية لفكرة اللامتناهي على فكرة المتناهي ، وبالتالي فإن الله الصادرة على ذاتي " (٨) .

والمثالية المعاصر تقترب من الواقعية فيما يتعلق بالاهتمام بالروح الإنسانية وللأسباب كثيرة يدافع المثالي عن الجانب الروحي ليس للإنسان فقط بل للوجود كله ، وعلى ذلك تكون المثالية المعاصرة على العكس من الفلسفة المادية والوضعية والطبيعية " (٩) . والمثالية تؤكد وجود العالم الروحي وترى أن الله هو روح الأرواح ، وتؤكد الخلود في الحياة الآخرة وأنه يوجد عالم روحي غير العالم الأرضي (١٠) . والهدف الأسمى للمثالي هو البحث عن الحقيقة ، والحقيقة روحية فالبحث عن الحقيقة هو نفسه البحث عن الله والتربيته الحقيقية هي التي تقود الإنسان إلى الله ، وقد عبر عن ذلك هرمان هورن Herman Horn حينما ذهب إلى أن التربية هي " تلك العملية التي يتوافق فيها الإنسان الحر الواعي ، الناضج جسماً وعقلياً مع الله " (١١) . فالوجود الإلهي من جهة ، والوجود الإنساني من جهة أخرى وعلى الإنسان أن يتوافق مع الله وهذا التوافق يعبر عنه الإنسان في بيئته العقلية والروحية والخلقية .

وإذا كان بعض المثاليين — مثل باركلي — رفضوا فكرة وجود جوهر مادي " فإن المثالي المعاصر يؤكد على الحقيقة الروحية ولا ينكر الوجود المادي ، ولكنهم يصفون عالم المادة بأنه متغير وغير مستقر " (١٢) .

(٨) المرجع السابق ص ٩٩ .

(٩) Loretta " Teaching and Learning " P.72 .

(١٠) Ibid , P.75.

(١١) Ibid . P.83.

(١٢) Ozman " Philosophical Foundation of Education " P.1,7.

وأن الإنسان روح قبل أن يكون جسما ويكون الهدف من التربية الدينية هو إعداد الإنسان فيكون في صورة إلهية ، فهي تربية تساعد الإنسان أن يفهم نفسه ويدرك طبيعته الروحية .

ويذهب برنشفاك إلى أن الإنسان لم يع نفسه وعيا تاما طالما ظل لا ينظر إلى نفسه على مستوى فوق الطبيعة ، وطالما لم يضع مشكلة الله والنجاة بالله ... وقد فهم الصوفية على نحو رائع أن الحياة الاتحادية (بالله) لا يمكن أن تتحقق إلا عند نهاية مجهود منهجي للحياة الباطنة " (٨) .

والحياة الدينية الصحيحة تؤدي إلى ترقى الحياة الأخلاقية فى نفوسنا وبالتالي فإنها لابد من أن تقضى إلى تحول السياسة نفسها إلى " تربية اجتماعية " (٩) ، تكون الحرية منها بمثابة الأهداف النهائية أو الهدف الأقصى . والحق أننا لا نستطيع أن نحقق الوعى الخلقى ، والدينى اللهم إلا إذا تسنى لنا نحرر الإنسان من آرائه المبتسرة الحافلة بالأنانية والتقاليد الزائفة .

حتى تصل الذات الإنسانية إلى حالة من الطهارة والصفاء الروحى ، وذلك من خلال مجهود منهجي منظم . ويرى برنشفاك أن صلاح الذات الإنسانية ، وخلص البشرية يتحقق من خلال تقدم المجتمع و تطوره ، وبدور التربية الفعال فى غرس الروح العلمية ، والتفكير العلمى فى أنفسنا أولا ، و بث روح التعاطف والمشاركة ثانيا وتربية الإرادة ثالثا ، والأول هو دور التربية العقلية العلمية ، والثانية هو دور التربية الجمالية والثالث هو دور التربية الخلقية ، وسوف نعرض ذلك فى الفصل الأخير

(٨) بنروبى " مصادر وتيارات الفلسفة الفرنسية " (مرجع سابق) ، ص ٤٥٣ .

(٩) زكريا ابراهيم " دراسات فى الفلسفة المعاصرة " (مرجع سابق) ص ١٠٢ .

حتى يتبين لنا كيف كانت التربية عند برنشفك تربية شاملة للإنسان من كافة جوانبه .

ويعبر لالاند عن نزعته الروحية للإنسان فيقول : " لو عرفنا الله بأنه الروح الكلية ، والحاكم الأعلى بين الأفراد ومنشئ قوانين الطبيعة فإن العقل هو حضور ما هو إلهي فينا " (١٤) ، فالإنسان في جوهره روح ، وإذا كان الإنسان في جوهره روحيا فإن التربية يجب أن تدخل في اعتبارها الروحية ، وأن تشجع نموها في الأفراد وهذا يتضمن أن التربية يجب ألا تعنى فقط بالاهتمامات العملية المحدودة وإنما يجب أن تنظر أيضا إلى الأفاق النهائية للحياة " (١٥) . وينظر لالاند إلى الإنسان على أنه كائن روحي يمارس حريته ، وبالتالي تهدف التربية إلى إشباع الروح وتنميتها وعلى هذا ينظر إلى التلميذ على أنه كائن روحي غايته الرئيسية في الحياة التعبير عن طبيعته الخاصة ، وهدف التربية مساعدته على القيام بذلك ، وبالتالي يجب أن يتعلم احترام القيم الروحية ، وقيم الأفراد الآخرين . ويرى برجسون أن الذات أو النفس هي في تطور مستمر لا يتوقف ، وهذه النفس الإنسانية تتميز عنده بأنها ديمومة وذاكرة، ولكننا لا نستطيع أن نعرف طبيعتها وكل ما نستطيع أن نقوله عنها إنها هي الحياة ذاتها " (١٦) .

وتقوم فلسفة برجسون على مبدئين الأول الروحية والثاني التطور ومنهجه واحد هو الحدس ، ولا سبيل لنا إلى معرفة النفس أو الروح إلا بالحدس وذلك حين نسبر أعماق نفوسنا باستمرار فنشعر بذلك التيار الذي نسميه نفسا " (١٧) .

(١٤) نبروبي " مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا " مرجع سابق ص ٩٧ .

(١٥) فينكس " فلسفة التربية " مرجع سابق ، ص ٧٢٦ .

(١٦) برجسون " التطور الخالق " مرجع سابق ص ١٣ ، ١٤ .

(١٧) بول جانيه ، جابريل ثيا " مشكلات ما بعد الطبيعة " ترجمة يحيى هويدي ، القاهرة ١٩٩١ ص ٢٩٠ .

وفلسفة برجسون فلسفة روحية ترى الإنسان روحاً لا جسداً ، وهى لا تنكر الجسم أو المحسوس ولكن تذهب إلى أن وراء ذلك الحقيقة الحقيقة وهى الروح الخالدة و التى لا يستطيع العقل أن يسبر أغوارها ويكشف أستارها ، فالعقل يقف مبهوراً أمام أثر أبدعه الله ، كأنه أجنى لا يفهم ومعجزة المعجزات ... الإنسان لا يمكن إدراكها بالعقل بل بالروح ، فشرارة الحياة التى فىنا ليست مادية بل روحية وخالدة تنمو وتستمر ، وهى حرة ، ويرى برجسون أننا إذا أثبتنا أن الإنسان حر ، بدت نظرية دارون فى التطور فى ضوء جديد ، فالإنسان ليس ألعوبة آلية فى يد التنارع المادى القاضى لبقاء الأصلح ، إن تيار الحياة ليدفع الإنسان أماماً وعالياً فى طريق التطور ، والقوة الدافعة ليست خارجة عن الإنسان بل هى فى داخله ... فهى تبشر فى كل لحظة بأنها ستزدهر وتغدو شيئاً لم يخطر بالبال ، إنها تنبع من حقيقة رائعة لا يعرف كنهها ، وإن روحاً قدسية لتكن فى قدرتها على التقدم ، فالواقع أن جوهر حياة الإنسان الخلاقة هو الله . ذلك هو الحياة والحياة تدفع إلى أعلى (٨) .

" إن تيار الحياة ليمتد بعد موت الفرد ، وهو باق بعد انقضاء لحظة الفشل وميل المادة إلى تحطيم نفسها وتكن فىنا جميعاً دفعة الحياة تلك ، قاهرة لا تقهر ، هذه الشرارة الحية ، هذه الطاقة التى تتدخل خلصة من تلقاء نفسها فى أحط أنواع المادة وتتلاءم معها ، ثم تسيطر عليها شيئاً فشيئاً هذه الطاقة تنطلق آخر الأمر حرة فى الإنسان وتعبر عن نفسها أروع تعبير فى النفس الخلاقة " (٩) .

(٨) هنرى توماس - المفكرون من سقراط الى سارتر " مرجع سابق ص ٤٦٢ - ٤٦٣ .

(٩) المرجع السابق ، ص ٤٦٣ .

فالروح خالدة عند برجسون ، وطبيعتها مجهولة من جانب العقل ولا سبيل إلى معرفة النفس أو الروح إلا بالحدس .

وذلك حين نسبر أعماق نفوسنا باستمرار فنشعر بديمومتنا ، وبذلك التيار المتدفق المستمر المتصل الذى نسميه نفسا أو روحا ، فالنفس عند برجسون هى الروح أو هى الطاقة الروحية الموجودة فى الإنسان والتي تتميز عنده بأنها " ديمومة وذاكرة " والذى جعل الإنسان إنسانا روحه التي تميزه عن سائر الكائنات الأخرى ، ومن ثم فهي أهم ما فيه ، وعلى التربية أن تساعد الإنسان على شفافية الروح ونقاؤها ، وبالتالي فالتركيز هنا على النشاط الروحي ، والعناية بالتربية الروحية التي تسمو بالإنسان إلى المرتبة العليا ، فالأخلاق والفنون والدين تأتي فى أعلى العلوم التي يجب أن يتعلمها الإنسان ، لأنها هى التي تنقى الإنسان من دنس الرذيلة ، ومن الانفعالات المريضة التي تثقل الروح إلى الجسد وتفسد حالات النشوة الروحية ، ومن هنا نجد لدى برجسون نزعة صوفية تدعو إلى الصفاء الروحي والتطهير من الدنس ، والخلاص من الرذيلة التي تلتصق بالجسم ، ولذلك اهتم برجسون بالأخلاق والدين وبالتربية الروحية والخلقية كما فى كتابه " منبع الأخلاق والدين " .

فإذا كنا نهتم بتعليم الصبيان العلوم الطبيعية فكذلك يجب أن نعلمهم المحبة والإيثار " يجب علينا أن نبحت فى أنفسنا ما استطعنا إلى البحث سبيلا عن الجوهر الأبدي ، وبقدر إحساسنا به يكون إتجاهنا نحو الكمال ، وقد أدرك البعض منا هذه الحقيقة فكانوا أمثلة حية من الكمال الروحي دون أن يكون لهم دراية بالعلوم ، لقد تعهدوا بالملاحظة والتربية

لقواهم الأبدية حتى أزدهرت فأنت أبرك الثمرات ، ولكن ما تلك القوى
الابدية ؟

إنها المحبة والإيثار ... ومن أجل ذلك يعجب برجسون غاية العجب فى
أن يرى حضارة اليوم لا تقرن أى إصلاح بالدعوة إلى تلك القوى الأبدية
فننتفع بها كما ننتفع بالفحم والحديد والكهرباء ، إن تعليم الصبيان منافع
الايثار لازم لزوم تعليمهم منافع الحديد والنار" (١٠) .

وضح تماماً أن برجسون يدعو إلى "تربية" تقوم على الأخذ بالعلوم
الطبيعية والقيم العليا والعواطف الإنسانية ، فالإنسان ليس جسماً فقط بل
هو روح وقلب وعقل وجسم ، ومهمة التربية ألا تتجاهل أياً من هذه
القوى بل تنميتها جميعاً بمقادير متناسبة ، وتعمل على التكامل بينها فتتسج
منها وحدة عضوية ، وألا يطغى منها جانب على الآخر ، فتركز التربية
على العواطف الإنسانية كما تركز على المعارف العلمية .

فيسير التقدم العلمى جنباً إلى جنب مع الكمال الروحى ، فهل يكفى العلم
وحده لسعادة الإنسانية ؟ أى هل يملأ العلم فراغاً فى نفوسنا ، أم هل
هو يعجز عن ذلك فتبقى نفوسنا خاوية متعطشة إلى أفق أرحب من أفق
هذه الدنيا ، دنيا العلم ؟

وإجابة برجسون العلم وحده لا يكفى لسعادة الإنسانية ، ولذا يجب أن
يصاحبه الكمال الروحى ، وهذا هو دور التربية التى يجب أن تطير
بجناحين أحدهما المادة والآخر الروح .

(١٠) مراد وهبة " المذهب فى فلسفة برجسون " مرجع سابق ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

خاتمة الفصل

يستهدف هذا الفصل دراسة الطبيعة الإنسانية والتربية عند كل من برجسون وكرونتشه ولاالاند وبرنشفاك .

وبعد العرض السابق الذى اتضح من خلاله أن الفيلسوف المثالى المعاصر يرى أن الطبيعة الإنسانية فى حالة من التطور والنمو مدى الحياة ، وهى تكتسب خبرات جديدة يوماً بعد يوم سواء كانت هذه الخبرات مباشرة أو غير مباشرة وأن هذه الخبرات تتراكم وتخترن فى الذاكرة التى تستدعيها وقت الحاجة إليها .

والفيلسوف المثالى المعاصر يرى أن الإنسان خير ولكن لديه نزوع نحو الشر ، والتربية تعمل على تهذيب وتأديب هذا النازع الشرير ، ولذلك تهتم المثالية المعاصرة بالتربية الخلقية كما أنها تهتم بالتربية العقلية للإنسان ، فتربية العقل والإرادة أهم من غيرها عند المثالى المعاصر .

وتؤكد المثالية المعاصرة على حرية الإنسان ، حرية الفكر والرأى ، وحرية الروح ، وترى المثالية المعاصرة أن الحياة الروحية كفاح دائم ومستمر ، وليست الحياة سلسلة مترابطة ممتلئة وخاوية من كل تقدم بل هى سلسلة دينامية مملوءة بالنشاط والروح والحركة .

وتدعو المثالية المعاصرة الإنسان إلى اقتحام الحياة لا العزوف والزهد عنها ، فهى فلسفة إيجابية تدعو الإنسان إلى المشاركة فى الحياة من أجل تطويرها إلى الأفضل على عكس الفلسفة الوجودية التى تدعو إلى القلق والاكتئاب والانتحار .

لا شك أن المثالية المعاصرة تدعو إلى طهارة الإنسان من الدنس والخطيئة ، وسيطرة العقل على الأهواء والميول مما جعلها تقترب من بعض أوجه التصوف والزهد ، ولكن المثالي المعاصر يرى أنه يجب الاهتمام بالتجربة الروحية والتجربة العملية أيضاً .

عصرنا هو عصر العلم والمادة ولكن المثالي المعاصر يدعو إلى إيقاظ الروحية كفلسفة فى عالم تسوده فلسفات مادية تدعو إلى الكفر والإلحاد ، ومن هنا كانت فلسفة برجسون الروحية رد فعل ضد المادية ، ولكن المثالي المعاصر يحيا فى عصر العلم ولن تحيا فلسفته إلا إذا ارتدت ثوباً جديداً يجعلها تقوم على المعرفة العلمية كما يظهر ذلك عند برنشفك الذى تحمس للعلم تحمساً لا حد له ، فالمعرفة الفلسفية عنده هى تلك المعرفة التى تتناول المعرفة العلمية بالنقد والتحليل وتكون لنا هذه المعرفة الفلسفية عالماً لنا هو الوجود الحقيقى ، وفى الفصل التالى عرض للمعرفة والتربية عند برجسون ولالاند وكروتشة وبرنشفك حتى يتبين موقف المثالي المعاصر من المعرفة والتربية .